دوال النفي

عبد الرسول عدّاي
بغداد، جمهورية العراق

● ـ النص/ الجدل في قصة الطوفان ـ

سورة هود :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين● قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمةً من عنده فعُميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون● ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون● ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون● ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً والله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين● قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين● قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين● ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم، هو ربكم وإليه ترجعون).

يمتد الجدل من الآية ٢٧ ـ ٣٤ ويتوزع إلى أربع مقولات (محاور للخطاب)، اثنتان قالهما نوح واثنتان قالهما القوم، والجدل يبرز موقف كلا الطرفين على مساحة زمنية، فغيبت عنها هوية الفاصل الزمني فأضحت حدودها مبهمة، وبالتالي يكاد أن يكون ما قيل في هذه المحاورة هو تراكم مواقف الطرفين ناقصاً الفواصل الزمنية، ومن الملاحظ أن الخطاب لا يقوم بقفزات فوق الزمن، بل يبثر الموقف من خلال الخطاب مغيباً كل ما شئت التركيز عن محتوى الجدل، لذا جاء الخطاب مباشراً في توجيهه، متيناً في نسيجه، غير متفضل عن باعثه، وهو رسالة نوح الإنذارية ﴿أن لا تعبدوا إلا الله أني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) ١ ـ ٢٦، هذا المحتوى الرسالي لتوظيفة النبوة كان له الدور الأساسي في إبراز دعوةنوح بأنها منهاج، للهدم الشامل / لا تعبدوا، وهي ليست نفياً لإطار واقع الارتباط بين الإنسان والمطلق بل أمر إلغاء تام بصيغة المجموع الشامل لكل صور الأواصر السابقة، وفي المقابل جاء فعل، التأسيس ليعيد صياغة تلك الآصرة /العبادة/ لحدود إنساني للارتباط بالله وحده، والرابطة التي تربط بين فعل الإلغاء/ الهدم، وفعل التأسيس/ البناء هي آصرة مستديمة في كل حلقات المشروع النبوي، بل إنها تمثل القاعدة التي أسس عليها مشروع التوحيد. ويتزامن مع محتوى النبوة دور إنساني واجتماعي، ينطلق من داخل الرسالة نفسها/ إني أخاف عليكم عذاب

يوم أليم/ هذا الخوف على مصير النوع الإنساني يخالطه أمل مشوب بالرجاء في الإيمان بالرسالة، عن مصير أفرادها، وهذا التبادل في مواقع المسؤولية بين الفرد/ الجماعة النبي/ العوام، قابله طرح الملأ بالرفض التام ـ ما نراك إلا بشراً/ الآية ٢٧، منطلقين من الاعتقاد بأن المسؤولية يجب أن تلقى إلى عنصر خارج الجماعة/ عنصر فوقي، إله، نصف إله، إله معاقب، بطل من سلالة الآلهة، ملك من رحم الربات.. الخ، بل نجد صدى هذه الفكرة البدائية عند المجتمع المكي الذي سخر من النبي محمد لأنه بشر يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، فالنبوة في طرحها الرسالي تعيد صياغة مسؤولية الجماعة من خلال انتماء الفرد، وبالمقابل ترى ـ الكفر ـ يطرد تلك المسؤولية إلى خارج مجال الانتماء الاجتماعي، ومن ذاك يتضح لنا إلى حد ماالبعد الاجتماعي والفكري للباعث إلى الجدال بين القوم ونوح.

وعند التمعن في هذا الجدال نلاحظ ما يلي:

ـ إن الجدل عبارة عن نسيج محكم من النفي بأنواعه المركب والبسيط، النحوي والدلالي، وبالتالي فإن هذه الملاحظة تجذب اهتمامنا إلى المستوى البلاغي للنص وإلى التدبر في دلالة كثافة النفي هذه.

ـ إن هذا الجدل من النوع المنتج الذي ولد فعلين في الابتداء، فعل الزمن الآية ـ ٢٧ وفي نهايته فعل التحدي الآية ـ ٣٢، وبذلك فهو ذو نهايتين مفتوحتين لاحتواء فعل الابتداء والنهاية، بما يناسب محتواه كتعبير عن مواقف متضادة.

إن كثافة النفي التي كونت بنية الجدال بين القوم ونوح، لم ترد في نمط أحادي من صيغ النفي، ولم تنحصر في قوالب الصيغ النحوية للنفي بل امتدت على مساحة النص، تولّد من السياق ما يناسب اتجاه دلالة كل دال ابتداءً من أبسط دال نافٍ مثل ظالم = غير عادل إلى دال النفي المركب الذي يشتق من تحليل السياق، الآية ـ ٢٨.

وفيما يلي تصنيف وتحليل دوال النفي الواردة في النص :

ـ النفي البسيط: ويتألف من كلمة مضادة لكلمة/ الصفة/ الثابتة، فهي ذات محتوى منفي تقابل مضاد معجمي، وتتضمن القائمة أ محتويات النفي البسيط الواردة في النص وتتضمن القائمة ب المعجميات الثابتة التي يدخل عليها النفي فيجعلها مكافئة لها من حيث الدلالة.

أ		ب
كارهون	غير	يحبون
تجهلون	لا	تعلمون
الظالمين	غير	العادلين
معجزين	ليسوا	بقائين*

فدلالة النفي تكافيء بين الكلمة المعجمية الثابتة والكلمة المضادة فتكون أ = النفي المكافئ +ب، ثم إن تكرار صيغة الفاعل الصادر عن الخصم تشير إلى بيان حكمه على الطرف المضاد، أما صيغتا الفعل (عميت، تجهلون) الصادرة عن نوح فهي لا تشير إلى نفي حدوث فعل بل إلى تقرير حال ارتبط بالحكم على ذلك الواقع قاد إلى النفي البسيط مثلت أحكام الطرفين على بعضهما البعض.

ـ النفي التام والنفي المضاد :

ظهر دال النفي التام ـ المضاد في أكثر من

* تفسير شبر

صيغة تحويه (نفي المستثنى منه + المقابلة بين حالتين + صيغة الخبر المنفي)، وقد توزعت كما يلي:

ت	الأية	النفي التام	النفي المضاد
٢٧		ما نراك اتبعك	إلا الذين هم أراذلنا/ نفي المستثنى منه
٢٧		ما نرى لكم علينا من فضل	بل نظنكم كاذبين/ المقابلة بين حالتين
٢٩		لا أسألكم عليه مالاً	إن أجرى إلا على اللّه/ الأخبار المنفي

فالنفي التام هو نفي يستمر إلى ما بعد انتقالة النفي المضاد فـ/ ما نراك اتبعك/ تمت وتستمر في سياق النص الدلالي إلى ما بعد الانتقالة إلى النفي المضاد، فهي تنفي الاتباع من جنس التابعين، والنفي المضاد يقدم هوية مغايرة للنفي المضاد، ودرجة المغايرة هنا لا تساوي قيمة التحايز بل تدل على الاتجاه العكسي لدالة النفي التام، فالسادة لم يتبعوك في النفي التام (المخاطبين) والسادة لم يتبعوك (عنصر الاتباع) في النفي المضاد الذي قدم محور جديد للاتباع وهم (الأراذل) الذين لا يكافئون ـ طبقياً ـ (بالنسبة لرأي الملأ). السادة، وكذلك الحال بالنسبة لدال النفي الثاني والثالث،/ ما نرى لكم علينا من فضل/ و/لا أسألكم عليه مالاً / فالفضل والمال ليسا من جنس الكذب والثواب الإلهي، بل قدما اتجاهاً عكسياً لدلالة النفي التام الذي استمر متجاوزاً النفي المضاد، فما نرى لكم علينا من فضل، موقف ثبت إلى ما بعد التحول في الظن بكذب نوح، ولا أسألكم عليه مالاً، استمر إلى ما بعد الجدال نفسه ليؤسس إحدى مرتكزات الرسالة. فالنفي التام ينقض رأي الخصم بينما يقدم النفي المضاد الرأي المعاكس له.

ـ النفي المضاد:

وهو نفي لموقف طرحه الخصم مغيب عن النص، / لا أسألكم عليه مالاً / هو رد واضح لموقف الخصم، أياً كانت درجة التبلور سواء كان شكاً أم تساؤلاً أم حكماً حول المال الذي يتعين عليهم دفعه استجابة لدعوته. أما دال النفي في/ ما أنا بطارد الذين آمنوا/ فهي تدل على موقف الخصم في إصراره على طرد المؤمنين والتي كشفت، الآية ـ ٣١ عن هويتهم/ ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم اللّه خيراً / وهذا بيان لموقف مضاد تجاه رأي الخصم المغيب عن النص.

ـ النفي المدور :

لم يظهر النفي المدور إلا مرة واحدة، وفي موقع فاصل بين جدال الرفض وجدال التحدي، وانسابت دوال النفي متتالية تؤكد دلالة الرفض التام لموقف الخصم على شكل طلقات متسلسلة تدور ثم تعود إلى نقطة الحبال الأولى:

نقطة البدء/ لا أقول لكم عندي خزائن اللّه

ولا أعلم الغيب

ولا أقول إني ملك

ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم اللّه خيراً / نقطة البدء ابتداءً حافظ على انتمائه إلى المجموع

بعد التحيز عنهم ثم عاد من خلال دوال النفي المتعاقبة ليؤكد انتماء المؤمنين برسالته إلى المجموع.

فدال النفي المدور ذو دلالة تأكيدية فقط، وهي مؤسسة على مواقف سابقة، أي أنها إلى حد ما تشير إلى التراكم في اتجاهات الموقف، لذا فهي غالباً ما تكون نهايته أو فاصلة بين حالتين كما في هذا النص.

ـ النفي المركب

يتألف من مقطع. وهو قد لا يحتوي على النفي بل مجمل السياق يشير إلى ذلك كما في الآية ـ ٢٨، فالاستفهام / أرأيتم / يتجاوز موقعه في النص قافزاً فوق الجزء الثابت من السياق وهو بيان لحالة الموقف بين نوح والقوم / ان كنت على بينة من ربي وأتاني رحمة من عنده فعميت عليكم / ثم يأتي تكرار الاستفهام / أنلزمكموها / مقابل / أرأيتم / ليؤكد نفي حالة استفهام / الجزء الثابت / استفهام /

نفي ضمن السياق

والتحليل نفسه ينطبق في دال النفي المركب للآية ـ ٣٤، فعدم نفع النصح طوقته صيغتان من أدوات الشرط الأولى / إن أردت أن أنصح لكم / والثانية / إن كان اللّه يريد أن يغويكم /.

شرط / الجزء الثابت / شرط

نفي صريح

فالجزء الثابت يتوسط صيغتين متشابهتين تؤثران على اتجاه دالته وتحولاته إما إلى نفي يصرح به السياق أو يتضمنه، وقد استخدمه نوح لخلخلة موقف الرفض أولاً ثم التحدث ثانياً.

ـ دوال النفي في الجدال :

النص الذي احتوى الجدال هو نص موجز، اقتصادي تكثفت فيه دوال النفي حتى كونت نسيج خطاب محكم توزعت فيه المواقف والآراء بين طرفين / نوح + القوم / حول دعوة نوح التأسيسية التي تقوم على فكرة التغيير الجذري / الهدم الشامل مقابل البناء الكامل /. ومن الملاحظ أن وظائف الدوال المختلفة للنفي ساعدت على تطور الجدال سواء في تحديد المواقف، وإطلاق الأحكام، ومحاولة التأثير في قناعات الخصم. فكان دال النفي البسيط يفصح عن رأي الطرف الأول تجاه الخصم، بينما دال التام ـ المضاد، حالة التناقض والتعارض بين الطرفين، وأكمل الدال المضاد ما هو مغيب من طروحات الأطراف عن النص من خلال عرض الموقف الثاني لها، أما النفي المدور فكان حداً فاصلاً، / مفتاح التحول / من جدال الرفض إلى جدال التحدي، اللذين برز في كل منهما دال للنفي المركب صدر عن نوح في محاولة لخلخلة تعنت موقف القوم تجاه دعوته.

لقد كان هذا النص انموذجاً متفرداً من الجدل بني على دوال النفي التي اختلفت أنواعه ومواقعه ضمن ترتيب معين تبعاً لوظيفة كل دال في تطوير وتنامي الجدل، وبذلك كونت جدلاً منتجاً لفعلين هما الرفض / التحدي اللذان فتحا طرفيّ الجدل الأول للمواقف الموصلة إليه، والثاني لاحتواء اتجاهات الفعل لما بعد الجدل، لذا كان هذا النص عنصراً حيوياً في قصة الطوفان، لتحولات السياق داخله، ولتبلور الأحدث في اتجاه متنامٍ فيه. □